الذكرى المئوية لرحلة لامرتين الى الشرق

لامرتين في لبنان وسورية

تموز ١٨٣٢ — نيسان ١٨٣٣

بقلم ا. سركيس

٣

في الاراضي المقدسة

بعد التعرف الى استير استنهوب ، امرة الصحراء ، والى الامير بشير الشهابي، صاحب لبنان ، كان من البديهي ان يميل لامرتين نظره شطر فلسطين والاراضي المقدسة ، التي كانت الداعي الاهم لمجيئه الى الشرق.

وهكذا كان . فبعد ان استراح في بيروت اياماً قليلة مع عائلته ، شدّ ركابه من جديد . وفي ٨ تشرين الاول اخذ طريق اورشليم ، عابراً بصيدا ، فصور ، فعكا المحاصرة اذ ذاك بعساكر ابراهيم باشا ، فحيفا ، حيث زاره شاعر عربي « لبناني الاصل من سكان حلب »[1] ، فتحدثا في الشؤون الادبية . ثم عرض عليه لامرتين ان ينظما في موضوع واحد ، وحفظ ترجمة القصيدة العربية في مذكراته الى جانب قصيدته[2]. ثم مرّ بقيصرية ، ويافا «السحرية المناظر ، الموضع الوحيد في الشرق الذي يحسن بعشاق الطبيعة ان يشتوا فيه .»[3]

وحلّ ضيفاً في دير الرهبان الفرنسيسكان في صحراء يافا ، فاخبروه ان الطاعون منتشر في اورشليم وجوارها ، فلا يمكنه لذلك ان يدخلها . غير انه ابى ان يرجع ولم يتبرك بلثم قبر المسيح ، ولو عرّض حياته للخطر . وابى جميع رفاقه وخدامه ايضاً الا ان يرافقوه.

---

١) جزء ١ : ٢٤٦

٢) لم نعثر في ما طالعناه من شعر الفرن الماضي على نصّ القصيدة العربي ، كما اننا لم نستطع ان نكشف القناع عن اسم صاحبها وشخصيته.

٣) الرحلة ١ : ٢٧٥

ولنلاحظ هنا ان لامرتين اعجب كل الاعجاب بجمال الطبيعة والخصب اللذين رآهما في البلاد الفلسطينية. وقد بلغ من اعجابه ان يفكر بالسكنى في فلسطين وبتأسيس مستعمرة زراعية فيها، لما رأى من استعدادها للزراعة وقبول الحضارة والعمران. قال يصف ارض عكا: انها مخصبة، جميلة المناظر، «وهي ارض الميعاد، حتى في ايامنا، لو كان فيها ادارة قوية وحكومة مستقيمة.» [1]

غادر لامرتين يافا مع حاشيته وفصيلة من الجند زوّده بها حاكم المدينة. وعند المساء اكتحلت عيناه برؤية المدينة المقدسة «الباهرة بانوارها والوانها» [2] فنصب خيامه خارج الاسوار، حيث قضى ليلته. ولما اطلّ الصباح، خلع نعليه، وطلى رجليه بالزيت، كيلا تعلق بهما جراثيم الطاعون. ودخل الى اورشليم، يقوده جنديان، ارسلهما الحاكم لهذه الغاية. وبعد ان قابل الحاكم ونال منه السماح بدخول المدينة متى شاء، زار السلطات الدينية والمدنية وبعض الكنائس والآثار المقدسة. وكان قد امسى فعاد الى خيامه. وفي مدة ثمانية ايام، لم يزل في خلالها معسكراً على اسوار اورشليم، طاف في المواضع التاريخية، كالناصرة والاردن واريحا والبحر الميت ووادي موسى (Arabie Pétrée)

اما عن عواطفه الدينية في كل هذه الامكنة، فحدث ولا حرج. فقد كتب منذ دخوله الحدود الفلسطينية ان «كثيراً ما كان يتبدل سفره بصلاة متصلة» [3]. وقال بعد ان قضى ليلة في الناصرة «لقد نهضت مراراً كثيرة في الليل لارفع صوتي وعواطفي الى الله الذي اختار هذا المكان منشأ لابنه» [4]. واثبت وهو في صحراء الاردن «ان قلبه لم يصغ الى موضع في الدنيا بلذة وسرور، كما اصغى الى هذا الموضع.» [5] اما عن القبر المقدس فيقول:

«المسيحي والفيلسوف، الاخلاقي والمؤرخ، كلهم يجب ان يروا في هذا القبر الحدّ الفاصل بين عالمين: العالم القديم، والعالم الجديد. فهو مبعث فكرة جددت المكونة، ومطلع مدنيّة حوّلت كل شيء، ومصدر كلمة دوى صداها في كل الارض.» [6]

وبعد ان طاف في جميع ما امكنه طوافه من الاراضي الفلسطينية، وتبرك

---

١) الرحلة ١: ٣٦٢
٢) الرحلة ١: ٤٠٩
٣) الرحلة ١: ٣٦٢
٤) » ١: ٣٦٧
٥) » ١: ٣١٠
٦) » ١: ٤٣٥

بالامكنة المقدسة ، عزم على الذهاب الى مصر . واذا برسالة من بيروت تفيده عن صحة عائلته ، وفي ختامها حاشية من ابنته جوليا تقول فيها انها بشوق اليه فيجب الّا يطيل سفرته بعد . فعدل عن رأيه واستلم طريق لبنان.

موت جوليا

بيد ان امرًا خطيرًا كان ينتظره في بيروت ، بعد هذه الرحلة البعيدة . فان المرض الذي رافق ابنته جوليا من فرنسة ، والذي كان يأمل شفاءها منه في هواء لبنان الجميل ، ظلّ ينهك قواها سرًّا ، بينما كانت صحتها تتحسن في الظاهر . وصل ابوها الى بيروت فاظهرت من السرور بلقائه ما ادهش العقول . ورأى من تقدم صحتها ما فرّح فؤاده . ولكن لم تمضِ بضعة ايام حتى ظهرت اعراض المرض فجأة . وقبل ان يستريح لامرتين من اتعاب سفرته ويتمتع كفاية بهذه الغبطة ، صعق قلبه بألم لم يستطع وصفه الا بالسكوت عدة اشهر ، اذ كان في ٢٥ تشرين الثاني من سنة ١٨٣٢ يحمل بين ذراعيه ابنته المحبوبة ، جثة هامدة . فحنّطها ليرسلها الى فرنسة حيث تدفن في مدافن آبائه ، حسب رغبتها الاخيرة . وقد حفظ لها في قلبه موضعاً عميقاً ورثاها بقصيدة من اجمل شعره ، نشرت في مذكراته دون ان يراجعها او ينقحها . وان رسائله ، التي كتبها في هذا الشأن ، تفيض بالعواطف الرقيقة والالم الحقيقي . ولا عجب ، فقد كانت جوليا وحيدة لابويها اللذين ابلغاها الى سن العاشرة بعناية تغلبت على جراثيم الامراض المتسلطة عليها . ولكن تغيّر الهواء الفجائي في بيروت عجّل في قطافها ولما تعرف جمال الحياة.

فمن البديهي اذن ان يكون هذا الحادث الجليل انتصب عقبة كؤودًا امام وجه لامرتين ، فمنعه اتمام سياحته . وهكذا كان . فانه في بادئ الامر لم يصغِ الّا الى صوت حزنه ؛ وقصد الرجوع الى فرنسة باقرب وقت . ولكن الشتاء كان قد دخل ، والمركب (L'Alceste) لا يرجع ليأخذه الا في الربيع. فقضى في بيروت اربعة اشهر حزيناً ، ضائع القوى : « حتى كاد اليأس يستولي

عليه ، واعتقد انه لاحق ، ولا شك ، بابنته الى القبر .» [1]

ومما كان يزيد في حزنه والمه انه سيموت دون ان يخلف نسلاً ويتمتع بلذة الابوة.

وتمضي عليه الاشهر الاربعة في وحشته ، فتحنّ نفسه الى الطبيعة التي اعتاد ان يجد فيها تعزيته ، فيشدّ رحاله بقلب كسير ليطوف بقية البلاد السورية واللبنانية.

في الطول بعلبك

ترك لامرتين بيروت في ٢٧ آذار ، قاصداً بعلبك مستصحباً معه هذه المرة قرينته الشكلي ، فباتا الليلة الاولى في حمانا حيث استقبلهما شيخ القرية ، حسب اصول الضيافة العربية . ويشهد لامرتين « ان قصر هذا الشيخ يفوق بالاناقة والظرافة ونبل الظاهر كل ما رآه من الابنية في لبنان ، بعد قصر الامير بشير»[2]

ثم قام الى زحلة حيث نزل في مطرانية الروم الكاثوليك. وقدم له الاسقف كل ما سمح له فقر كرسيه بتقديمه . ولعل لامرتين ألمّ بشيء من وصف هذا الفقر حيث قال :

« ان كل غنى الاسقف في زحلة يقوم ببعض كتب عربية ويونانية مبعثرة في غرفته ؛ وصندوقة عتيقة فيها اثوابه وبدلاته الحبرية » [3]

لكنه ، على وجه الاجمال ، يمدح كرم اهل زحلة وحسن استقبالهم وبشاشتهم للغريب . وفي ٣٠ آذار سار بقافلته الى بعلبك.

وهناك ايضاً اضافه اسقف الروم الكاثوليك.

ولكن في اي منزل ! بيت افقر فلاح في فرنسة افضل من مطرانكة بعلبك! بعض غرف هرمة يفصلها رواق متهدّم : هذا قصر المطران ! والى جانبه غرفة اوسع قليلاً من البقية ، في صدرها مائدة من بقايا الهياكل المجاورة : هذه هي

١) من احدى رسائله.

٢) الرحلة الى الشرق ٢ : ١٠٠، كل من زار حمانا اراه سكانها بيتاً قديماً محولاً الى متحف خاصّ بشاعرنا ، مثبتين انه المنزل الذي سكنه لامرتين — لا ليلة واحدة بل اياماً عديدة — ولكن هذا الاثبات يحتاج الى شيء من البراهين ، ولاسيما اذا نظرنا الى هذه الاوصاف الفخمة التي سطرها لامرتين عن المنزل الذي بات فيه ليلةً واحدة.

٣) الرحلة الى الشرق ٢ : ١٠٤

كاتدرائية مدينة الشمس ! تجتمع فيها العيال المسيحية القليلة ، المبعثرة بين قبائل الاعراب المسلمين .

ولكن لا بأس . فليس هذا ما جاء لامرتين لاجله : انه بقرب اطلال بعلبك . وصل عند المساء ، وما كاد يقابل الاسقف مضيفه ببعض كلمات ودّية ، ويتناول لقمة من الطعام ، واذا به بين الخرائب ، يتأملها على ضوء القمر ، فيغوص في بحر من التأملات والخواطر الوجدانية .

ويظهر مما قاله في وصف هذه الاطلال ، انها كانت في اوائل القرن الماضي ، حين زارها ، اقلّ خراباً واصلح بكثير مما هي عليه اليوم .

لكن من الغريب ان لامرتين كان يستقصي تاريخ الامكنة التي يمرّ فيها ويتحقق من ثبوت الوقائع التي يذكرها ؛ حتى اذا تكلم عن بعلبك ، اكتفى بالاخبار التقليدية المتناقلة .

نعم انه ينفي الاسطورة القائلة ان باني بعلبك هو سليمان الحكيم . ويبرهن عن ذلك : اولاً بان مملكة سليمان لم تتعدَّ حدود دمشق ؛ ثانياً بان سليمان ، لو امكنه ان يقوم بمثل هذا البناء العظيم ، لبنى مثله في اورشليم ، حيث لا نرى بعد اثراً للهيكل الذي شيده لاله اسرائيل . ولكنه لا يتصل الى معرفة بناة بعلبك الحقيقيين ، الذين اثبت التاريخ الحديث انهم اليونان والرومان . وينسب هذه الآثار العظيمة لعصر الجبابرة الاوائل . فيدوّن في مذكراته ان الاعراب اكدوا له وجود قبور ، بقرب بعلبك ، فيها عظام بشرية عجيبة في عظم حجمها ؛ ويأسف لكون الوقت لم يسمح له بزيارة هذه الآثار الغريبة وتفقدها .

ثم يختم قائلاً :

« مهما يكن من الامر ، فان البعض من حجارة بعلبك التي يبلغ طولها ٦٢ قدماً وعرضها ٣٠ وسماكتها ١٥ ، هي اعظم الاجرام التي استطاعت اليد البشرية ان تحركها . » (١

وفي اليوم الثاني ، انتقى من حجارة بعلبك بعض قطع تعهد له الاسقف بارسالها الى بيروت ، ليحملها الى اوربة « فيغني بها المتاحف ودور العلم » ؛ ثم القى النظرة الاخيرة على هذا المتحف العظيم ، الضائع في رمال الصحراء ، ولوى نظره شطر دمشق .

(١ الرحلة ٢ : ٢٦

في دمشق

لم يكن في ذلك العصر عربات ولا سيارات ، فتقرب المسافة بين بعلبك والشام ؛ فكان لا بد للمسافر من ان يقضي بعض ايام على الطريق قبل الوصول الى عاصمة سورية . ولذلك كان سرور لامرتين وقافلته عظيماً اذ ظهرت لهم الزبداني ، « تلك القرية الفتانة » . فدخلها بعد المغيب ، وخرج منها قبل الشمس « فكانت اذ ذاك اجمل في عينيه مما رآها عليه بالامس »[1] وتمنى لو يحظى بمثلها في جميع مراحله . والحق انه لم يتكلم عن مدينة او قرية بالاعجاب واللذة اللذين تكلم بهما عن الزبداني ، اذ ظهر له من كرم اهلها وحسن ضيافة شيخها ما سرّه واراحه .

وفي ٢ نيسان قبل ان يدخل دمشق غيّر ثيابه الاوربية بثياب عربية خالصة . وتزيت قريته بزي السوريات الكامل ، كي لا يعرف الدمشقيون انهما افرنج ، فيكون ما لا تحمد عقباه . لأن « اهل الشام يكرهون اوربة الى حد انهم لم يقبلوا عندهم لا قناصل ولا ممثلين لتلك البلاد المسيحية »[2]

واذ بلغ ابواب المدينة وجد في انتظاره رجلاً من تجار الشام ، افرنسي الاصل لكنه يخفي نسبه تحت اسم ارمني ؛ وكان لامرتين قد تعرف اليه في اثناء رحلته . فاضافه في بيته وكان دليله الامين مدة اقامته في عاصمة سورية : فزار واياه كثيرين من رجالها وطوّفه في جميع آثارها .

وان من يقرأ وصف لامرتين لدمشق ، ثم يتفقد احوالها في هذا العصر لا يجد كبير فرق بينها في الامس واليوم . فهي ، مثلاً ، لا تزال مشهورة بصنع الحلويات والمربيات ، واهلها دائماً رجال صناعة وتجارة ، محنكون في سياسة الامور ، يعرفون ان يدخلوا المشاريع الاقتصادية من ابوابها ؛ وشوارعها القذرة ، وجدران بيوتها الخارجية المبنية باللبن والطين ، لا تدلّ اقل الدلالة على جمال منازلها في الداخل ، من بحيرات وجنان ورياش غني وترتيب ونظافة . هكذا رآهم لامرتين ، وهكذا لا تزال تراها اليوم في اكثر احيائها .

---

١) الرحلة ٢ : ٥٨ ٢) الرحلة ٢ : ٦٠

فلنسمعه الآن يصف الجامع الاموي قال :

« لقد شاهدت ساحة الجامع الكبير من احد ابوابه المطلة على الشارع . كان هذا الجامع في الاصل كنيسة على اسم القديس يوحنا الدمشقي (١ . ويظهر لي انه وكنيسة القبر المقدس في اورشليم من بناء عصر واحد . فهو فسيح ، باسق المنظر ، على النسق البيزنطي ، المقلد النسق اليوناني تقليداً فاسداً ، حتى كانه مبني من بقايا اخربة عتيقة . اما ابواب الجامع الكبرى فمغطاة بستار ثقيلة . ولم استطع ان ارى الداخل ، لان المسيحي الذي يدنس الجوامع بدخوله اليها ، يعرض نفسه لخطر القتل . فاكتفينا اذن بالوقوف قليلاً في الساحة بحجة اننا نشرب من الحوض . » (٢

واذا كان لامرتين لم يعجب ببناء الجامع الاموي فقد وجد في دمشق ما جعله يهتف :

« ان شعباً يرسم مهندسوه ويتمم بناؤوه اثراً كهذا لهو شعب لا يمكن ان يموت فيه الروح الفني . » (٣

وزاد في تقريظ دمشق ، فقال ، وقد استيقظت روحه الشعرية .

« ليس على وجه البسيطة مكان يذكر جنة عدن اكثر من دمشق . . . ما دام على الارض ممالك فدمشق تظل مدينة عظيمة . » (٤

ثم احصى سكانها فكانوا اربع مئة الف ، حسب البعض ، او ثلاث مئة الف ، حسب غيرهم . اما المسيحيون فكانوا يعدون فيها ٣٠ الفاً ، على قوله .

ولقد كان في عزمه ان يتم رحلته من دمشق الى تدمر . لكن اخطار الطريق ، وطول هذه السفرة ، حولاه عن عزمه ، لا سيما انه بعد رؤية بعلبك لم يكن ليظن انه يجد ما يلذه في تدمر .

فودع مضيفه والقليلين الذين تعرف اليهم ، وخرج ، لا متخفياً كما دخل ، لكن في حشد من الشعب ، بعضهم يحييه بالابتسام وبعضهم يرشقه بالشتائم .

وكانت الثلوج والامطار غزيرة ، فقاسى في رجوعه عناء كثيراً . وفيما هو على طريق بيروت ، وقد قطع زحلة وحمانا ، التقى بساعٍ يحمل اليه بريد فرنسة ، وفيه رسالة من اخته تنبئه انه انتخب عضواً لمجلس النواب .

---

١) والصواب على اسم القديس يوحنا المعمدان . لكن الشعب السوري ينسبها غلطاً الى الدمشقي . والحال ان هذه الكنيسة مبنية قبل مولده بزمن طويل . ٢) الرحلة ٢ : ٨٦

٣) الرحلة ٢ : ٨٦ خان اسعد باشا بناه اسعد باشا العظم ، حوالي سنة ١٧٥٠ ، بعد بناء قصر العظم المشهور وموقعه في سوق البزورية ٤) الرحلة ٢ : ٩٤ .